(التغيرات الإجتماعية ومدى إنعكاسها على بنية الأسرة الريفية الليبية ووظائفها)

خيري الصادق عبدالله أرحومة

الملخص

كان الهدف من هذه الدراسة الكشف عن طبيعة المجتمع الليبى واتجاهاته نحو الحداثة والأخذ بالجوانب الصالحة منها مع التمسك بالجيد والمهم من الجوانب التقليدية.

وقد استخدمت هذه الدراسة منهجية تتمثل فى دراسة تحليلية أمبريقية واستعانت فى ذلك بالعديد من الناهج مثل المنهج التاريخى والمقارن والوصفى لوصف هذه الظاهرة.

فالمجتمع الليبى كغيره من المجتمعات النامية تختلف درجة تحديث الأسرة فيه ويتباين مستواها الاجتماعى والثقافى حيث تتأرجح معظم أسره بين التقليدية والحداثة أو بين التقليدى والحديث.

فبناء السلطة فى الأسرة يحتل فيه الأب رأس الهرم ويكون تقسيم العمل مثلاً على أساس النوع والعمر أما بخصوص العلاقة بين الآباء والأبناء فى هذا النمط من الأسر فيصفها الكثيرين بأنها ميدان للتفاعل بين مختلف أعضائها.

وبالنسبة لحجم الأسرة فالأسرة التقليدية كما تسمى أحيانًا العائلة فى هذا المجتمع تضم فى الواقع عدة أسر ترتبط فيما بينهما بروابط قرابية مباشرة أى قائمة على صلة الدم.

كذلك بالعمل الجماعى والمعيشة الجماعية والسلطة الواحدة ومن أهم مظاهر هذه الأسرة فى جانبها الاقتصادى إنما مكتفية ذاتيًا وأسرة إنتاجية فى نفس الوقت.

وقد تأثرت هذه الأسرة بالحداثة وأدت إلى سطحية العلاقات الاجتماعية الأسرية وضعف الروابط العائلية وأن العائلة أصبحت أكثر حجمًا ولا تتقيد فى علاقتها بشبكة العلاقات القرابية وأن من أهم تأثيرات الحداثة فى هذه الأسرة تتمثل فى النظرة الرشيدة للحياة أى النظرة المنطقية العلمية التى يتقبلها العقل ويستطيع فهمها وهذا لا يتأتى إلا بإيمان الفرد فى الأسرة بالعلم والمعرفة اللذين هما أهم صفتين تصاحبان ظاهرة التحديث فى المجتمع.

Social Changes and Extent of their Impact on Rural Libyan Family Structure and its Functions

Abstract

The study's aim is to reveal the nature of Libyan society, trends toward modernization and the introduction of taking of good and useful thing towards modernity, in the same time we should be safe our good and important of the traditional aspects, the methodology has been used in the empirical analytical study that used in many of approaches such as the historical, comparative, descriptive method to describe this phenomenon. Libyan society is like other developing societies in the degree of this family according to cultural level, where most of the Libyan family between traditional and modernity, or between traditional and modern.

The construction of family when the father occupies the top of the pyramid of this family, some explains this division as the Squire of Mechanism between all members family.

According to the family size; traditional family is also sometimes called the family in this society has in fact several families linked by ties directly blood linked. As well as collective action or collective life or the one power according to all the last things we find the economic factor is an important thing, when the family find itself is sufficient and can be products some its need. Family Have been influenced by this modernity, has led to a superficial social relations, family, weakness of family ties, family has become smaller, family has not comply with relation to the network of relations blood, we can say that of the most important effects of modernity in the family is in the perception of governance of the life of any view of logical scientific that mind can accept These do not come with faith of the individual in the family science , knowledge, which they are the most important things come with modernization-in the society.

التغيرات الإجتماعية ومدى إنعكاسها على بنية الأسرة الريفية الليبية ووظائفها

(تحليل سوسيولوجي)

الأسرة الريفية الليبية (خصائصها ووظائفها):

وجدت الأسرة في ليبيا كسائر أنحاء العالم منذ القديم، وهناك من الأدلة التاريخية ونتائج الحفريات ما يؤكد وجود نظام أسري عريق في ليبيا، وما يوضح أن لها نشاطات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ومنذ الفتح العربي الإسلامي تأسست وتكونت الأسرة الليبية في الريف والحضر على السواء على أركان وقواعد الإسلام، حيث تم تكوين الأسرة وتنظيم العلاقات بين أفرادها ومع غيرها من الأسر وفقاً للشريعة الإسلامية[1].

إن تواجد الأسرة الليبية في بيئة جغرافية وظروف طبيعية معينة أكسبها صفات وخصائص وعادات وتقاليد محددة، ومجموعة هذه التقاليد في عمومها هي نفسها خصائص وعادات وتقاليد الأسرة العربية، ورغم ذلك تظل للأسرة الليبية عاداتها وتقاليدها الخاصة الناتجة عن معطيات بيئتها الصحراوية والبدوية والريفية، فعلى سبيل المثال أن أساليب إتمام مراسم الزواج في ليبيا قد تأخذ طابعاً وقيماً طبقاً لعادات وتقاليد غير موجودة في مجتمعات عربية أخرى، ولكن مهما كانت تقاليد الأسرة الليبية فكما يقول أحد أساتذة التراث والأدب في تونس الاستاذ محمد المرزوقي فإن جذور عاداتها وتقاليدها وأعرافها ممتدة هنا وهناك إلى بادية الجزائر والمغرب وتونس وفي الصعيد المصري. والمرجح أن هذه التقاليد الأسرية جاءت مع قبائل بني هلال وبني سليم والتي انتشرت في هذه المناطق من شمال أفريقيا، بل أن هذه التقاليد تتوغل في مجاهل القرون الخالية، فنجد لها أصولاً وأشباهاً في الجزيرة العربية وفي عهد جاهليتها الأولى، بل يمكن وجود الكثير من هذه العادات والتقاليد الأسرية في الكتب المؤلفة عن العرب في الجاهلية[2] .

إضافة إلى ما سبق، فإن وجود الأسرة الليبية في بيئة أفريقية قد أكسبها كثيراً من عناصر الثقافة الأفريقية، والتي بدون شك امتزجت واختلطت بالثقافة العربية الإسلامية، هذا إلى جانب تأثير الأتراك وعاداتهم وتقاليدهم، وتأثيرات ثقافة البحر الأبيض المتوسط. ولنأخذ مثالاً بسيطاً على ذلك ما يقدم من وجبات وأكلات وحلويات في الأفراح والمناسبات الأسرية، فهذه تمثل خليطاً من المطبخ العربي والأفريقي والعثماني والأوروبي من جنوب أوروبا بالذات.

إن تكوين الأسرة الريفية الليبية يتم على أساس من الشريعة الإسلامية، وعلى

ضوء العادات والتقاليد والأعراف القبلية المعروفة عادة في القبيلة العربية. فالزواج كان يفضل في الماضي أن يتم من داخل القبيلة أو العائلة الممتدة، أو على الأقل من نفس القرية أو المنطقة. ولذلك يمكن المحافظة على روابط القبيلة أو العائلة، وكذلك المحافظة على الثروة والإرث في نفس القبيلة أو العائلة، ورغم ذلك فكل شيء يتعرض لتغيرات كبيرة، حيث بدأ الزواج من خارج القبيلة نظراً لاختلاط الناس في العمل والتعليم والمعيشة في المدن والتجمعات السكانية الحديثه التي أنشئت ضمن مشروعات الاستصلاح الزراعي.

الأسرة الريفية في المجتمعات العربية خضعت لتغيرات عديدة خلال السنوات الماضية بفعل عوامل كثيرة، وتتصف **بخصائص من أهمها**[3]:

1 - أنها أسرة كبيرة وممتدة، تتكون من عدة أجيال بخلاف الأسرة النووية أو الصغيره الموجودة في المدن.

2 - أنها أسرة كثيرة الأبناء والأطفال والأقارب.

3 - تعيش الأسرة الليبية الريفية في مسكن واحد يجمع بين عدة أجيال وأقارب، فهناك الزوجة والزوج والأبناء والجد والجدة والعمات والخالات.

4 - أنها أسرة تشكل جماعة واحدة وغالباً متعاطفة في السراء والضراء، وتمتلك الثروة والأشياء والتقنيات بشكل جماعي.

5 - أنها أسرة ذات ولاءات مزدوجة، فالولاء الأول للقبيلة او القرية ثم المجتمع أو الأمة.

6 - أنها أسرة لا مكان فيها لخصوصية الفرد وشخصيته، فمن حق جميع أفراد الأسرة التدخل في شئون أبنائها الشخصية مهما كانت من اختيار الزوجة للشاب، واختيار الزوج للفتاه وحتى اختيار المهنة ومجالات صرف داخل الفرد.

7 - أنها أسرة تحكمها علاقات عاطفية واجتماعية قوية، وقواعد ونظم لا مناص للفرد منها أو يتجاهلها.

8 - أنها أسرة محافظة تقليدية لا تسمح لأي من أبنائها التمرد على سلطتها، أو الإتيان بجديد أو بدعة. فهي إطار يتكرر فيه نفس نمط الشخصية عبر الأجيال والأزمان.

9 - أنها مظلة اجتماعية يحتمي بها الفرد في كل الأوقات وخاصة في وقت الشدة والحاجة.

وظائف الأسرة الريفية الليبية:

للأسرة الريفية كسائر أنواع الأسر الأخرى وظائف وواجبات متعددة أهمها المحافظة على النسل، وتربية الأبناء وتنشئتهم بما يتفق وثقافة المجتمع الريفي أو البدوي، والعمل في الزراعة ورعي الماشية او الحرف المرتبطة بالزراعة. وللأسرة في الماضي وظائف أخرى مثل الدفاع عن نفسها ضد أخطار الآخرين والطبيعة، ووظائف إدارية غير أن بعض اعضائها خاصة كبار السن يقوم بدور الوساطة بين الدولة والمجتمع كما حدث في عهد الإدارة العثمانية في ليبيا، حيث قامت السلطات التركية باختيار بعض الأفراد المشايخ من أسر ليبية وأوكلت إليهم مهمات الإدارة المحلية، أو فض المنازعات القبلية، أو جمع الضرائب أو مجرد المساعدة في ترويض أبناء القبائل الليبية وتطوعيهم لسلطة الأتراك.

ويمكن القول بأن أهم وظائف الأسرة الريفية هو العمل الزراعي إلى جانب وظيفتها الحيوية، وهذا ما يجعلها أسرة مختلفة إلى حد بعيد عن الأسرة الحضرية وخاصة في النواحي التالية[4]:

1 - أن الأسرة القروية عبارة عن فريق للإنتاج يقوم بالعمل في إطار مشروع انتاجي صغير.

2 - أنها أكثر استقلالاً بكثير من غيرها من الأسر فيما يتعلق بإشباع حاجات أعضائها، ويرجع ذلك إلى طبيعة العمل الزراعي الذي تمارسه الأسرة.

3 - أن مجال الوظائف التي تؤديها الأسرة الريفية أكثر شمولاً، كما انها تؤدي تلك الوظائف بطريقة متصلة ومستمرة، ولذلك يرتبط الفرد الريفي بالأسرة ارتباطاً قوياً لدرجة أنه يذوب فيها ويخضع لها، كما أن الأسرة تكون على درجة عالية من التماسك وتعمل بشكل فعال على مقاومة كل عوامل التفكك.

4 - أن الأسرة الريفية تستمد من القرية كمجتمع محلي الدعم الذي يمكنها من أداء وظائفها المختلفة[5].

وعلى أى حال تتسم الأسرة الريفية والبدوية عموماً بتقسيم واضح للأدوار والواجبات في إطار الأسرة نفسها وفي المجتمع.

وعادةً ما يوصف المجتمع الريفي بأنه مجتمع منقسم بوضوح إلى مجتمع للرجال ومجتمع للنساء، ولكل دوره ووظيفته، فيعتبر الرجل سيد البيت والمسئول الأول في الأسرة الريفية والبدوية، فهو الذي يقوم بكل الأعمال خارج البيت مثل الحرث والحصاد والدرس ونقل المحاصيل إلى السوق، ورعي الماشية والعناية بها. وخاصة رعي الأغنام والإبل بعيداً عن مقر العائلة.

كما يعتبر من واجبات الرجل الاتصال بالآخرين في القبيلة أو القرية أو المجتمع، فهو الذي يعقد كل الاتفاقيات، ويفي بكل الالتزامات الاجتماعية

والاقتصادية التي تتعهد بها الأسرة.

أما دور النساء في الريف الليبي فهو واضح ومميز ونابع من تقسيم دقيق للعمل. فهي تعمل في الزراعة إلى جانب الرجل، ولكن عادة تقوم بالجزء الأسهل من الأعمال الزراعية. كما تقوم المرأة في البادية بحلب الغنم، وجلب الحطب والماء، والقيام بالأعمال المنزلية المرهقة مثل إعداد الطعام وتنظيف البيت، وتعتني بالأطفال وتوفر لكل فرد من أسرتها متطلباته المختلفة من الطعام والملبس. كما تختص المرأة الريفية بنسج العبئ (لباس ليبي تقليدي يلبسه الرجل) والخيام والملابس، وصنع الحصر، ودق الحبوب والفلفل. وفي الجنوب الليبي يناط بالمرأة أيضاً الذهاب إلى السوق وبيع الخضار والتمر وبعض منتجاتها البيئية من سمن وجبن وكساء. وفي مرزق وغيرها من مدن وقرى الجنوب الليبي كانت هناك أسواق خاصة تسمى أسواق النساء لأن البائعات فيها كلهن من النساء[6].

ومن مهام المرأة ووظائفها في الريف الليبي والحضري على السواء اختيار زوجة ابنها أو أخيها. والتمهيد لإتمام مراسم الخطوبة وعقد القران والتحضير لحفلة العرس مثل تجهيز الأطعمة والحلويات، والاتفاق مع المغنيات اللواتي يتولين إثارة الهمم والطرب في حفلات النساء ومدح أصحاب العرس علنا.

وعلى أى حال ورغم التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي شهده المجتمع الليبي في السنوات الأخيرة، فلا تزال الأدوار والوظائف مقسمة بين الرجل والمرأة، بل لا تزال هناك حواجز كبيرة بين مجتمع الرجال ومجتمع النساء، فللرجل عالمه الخاص، فهو بعد أن يمضي يومه في العمل بعيداً عن بيته يعود ظهراً أو في المساء ليجد مائدة الطعام جاهزة، وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فهذا مدعاة للتذمر من زوجته وربما قد يؤدي ذلك إلى منازعات تنتهي بالطلاق. ونادراً ما يجلس الرجل الريفي أو البدوي مع زوجته وأولاده، إذ من المعتاد أن يقضي قسماً من الليل بصحبة أصدقائه سواء في منزله بالمربوعة (غرفة ضيوف) الخاصة به، أو يخرج من المنزل إلى بيوت أصحابه وأقاربه من الرجال. ويقوم الرجل بتزويد ما يلزم من مأكل ومشرب وملبس، وفي الماضي لا يسمح الزوج لزوجته بمناقشته أو معارضته إلا في أمور بسيطة مثل تدبير شئون المنزل وتربية الأولاد، وهذا عادة يتم في وجبة الإفطار في الصباح أو عند الجلوس لتناول الشاي أو بعد وجبة الغداء أو بعد وجبة العشاء[7].

وللأطفال والشباب الصغار دور في المجتمع الريفي، فكما أشرنا من قبل فإن كثرة الأطفال تعد من المزايا التي تتمتع بها الأسرة الريفية والبدوية، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يعتمد على الزراعة والرعي وهما القطاعان اللذان يحتاجان إلى كثير من الأيدي العاملة (خاصة قبل إدخال الآلة إلى قطاع الزراعة)، إضافة إلى أن كثرة الأبناء خاصة الذكور هو من مصادر الهيبة والمكانة الاجتماعية للأب وللأسرة. وعندما يكبر الأطفال ويصبحون شباباً عليهم أداء الكثير من الواجبات

الأسرية في حياتهم الريفية والبدوية من أهمها ما يلي:

1 - مساعدة الأسرة في قضاء بعض اللوازم البسيطة مثل شراء بعض الحاجيات كالسكر والشاي والخبز، ويتطور التكليف بتقدم عمر الطفل.

2 - المساعدة في رعي الماشية وخاصة الأغنام، ولكن تتمثل هذه المساعدة في أعمال ثانوية مثل تنظيف المكان الذي تنام فيه الأغنام وإعطائها الأعشاب أو الماء، ويتطور هذا العمل بتقدم العمر ونمو الطفل.

3 - مساعدة الأب أثناء العمل وذلك بمناولته بعض الأدوات والمعدات الزراعية كأن يناول الطفل والده الفأس أو المنجل، أو يساعده في حمل بعض المعدات الخفيفة إلى مكان العمل، وتتعدد الواجبات بنمو الطفل.

4 - وفي المجتمع الليبي قد يكلف الطفل الريفي بمهام أكثر من طاقته مثل رعي الماشية وجلب الماء من مكان بعيد، والمشاركة في عمليات الحرث والحصاد وغيرها من الأعمال المرهقة لكاهل الطفل والشاب الصغير.

نعود مرة أخرى لتقسيم العمل بين الرجل والمرأة، فنجد نفس هذا التقسيم ينطبق على الأطفال. فالسياق واحد، حيث يقوم الأطفال الذكور بالأعمال والوظائف المناسبة لحياة الرجل الريفي، وتقوم الفتيات الصغيرات بالأعمال المناسبة لحياة المرأة الريفية، فالطفل الذكر يعد دائماً لدور الرجل الريفي ونموذجه ومثله الأعلى في ذلك هو والده أو أخوه الأكبر أو عمه أو خاله، أما الطفلة الصغيره فتعد لدور المرأة الريفية تساعد في العناية بالبيت وإعداد الطعام وبعض الأعمال الزراعية الخفيفة التي عادة ما تقوم بها المرأة في المجتمع الريفي.

إن نموذج تربية الفتاه البدوية يتمثل في تعليمها وتدريبها للقيام بأعمال وواجبات إدارة المنزل من غسل وتنظيف وطحن للحبوب وتنقيتها وغربلتها وصنع الطعام، ومن توابع هذا تعود الفتاه على القيام باكراً قبل الرجل حتى لا تعتبر كسولة أو كما يقول المثل الليبي "بايرة" وأن الرجل هو السيد يجب أن تطاع أوامره بدون نقاش.

الأسرة الريفية الليبية في مجتمع متغير:

وهكذا كما لاحظنا فللمجتمع الريفي والبدوي أحكامه ونظمه ومنطقه الذي يحفظ تناسقه وبناء الأسرة والعائلة فيه. ولكن يظهر اليوم بفعل عوامل التغير الاجتماعي والتنمية والتحديث أن بدأت هذه الآليات الاجتماعية التقليدية تفقد أحكامها ومنطقها واتساقها الداخلي، بل وبدأت هذه الآليات تتفكك وتتحول إلى آلية اجتماعية أخرى لا تحكم وتضبط الأسرة الريفية فقط، بل وأيضا الأسر الحضرية الليبية، لأننا نعتقد أنها - أي الأسرة - في المدينة الليبية تحمل معظم بل أغلب صفات حياة الريف، فهي أسرة ريفية وبدوية المنشأ، أو أسرة انتقالية تتأرجح بين حياة الريف وحياة الحضر.

ويبرز السؤال مرة أخرى لماذا وكيف تفككت وتحللت أنظمة وأعراف الأسرة الريفية الليبية؟ إن الجواب يكمن في معطيات المجتمع الليبي كسائر أجزاء الوطن العربي الأخرى، وتتمثل هذه المعطيات في عمومها في قوى التنمية والتحديث الذي شهدها المجتمع الليبي في النصف الثاني من القرن العشرين. فعملية التنمية والتحديث هي نموذج اجتماعي جديد مختلف إلى درجة كبيرة عن النموذج الاجتماعي التقليدي القديم والموجود في ليبيا منذ مئات السنين. فالتنمية الليبية لم تكن جزئية أو عابرة، وإنما هي تنمية واسعة وشاملة بحيث سعت إلى تغيير كل البناء الاجتماعي فلسفياً ومعرفياً، وسلوكياً، وعلى مستوى تكوين وبناء المؤسسات. فالتنمية إذ سعت ولا تزال تسعى إلى تحويل الإنسان الليبي من عالمه القديم إلى عالم جديد في فترة قصيرة جداً. وهذا الانتقال والتحول السريع بدون شك أثر وسيؤثر بشكل أكبر على الأسرة ككل سواء كانت ريفية أو بدوية أو حضرية، وبعبارة أخرى لقد تغير المجتمع الليبي وما يزال في حالة تغير، وتعتبر الأسرة من أول المؤسسات الاجتماعية التي ينعكس عليها هذا التغير الاجتماعي. ويمكن أن نشير إلى بعض نتائج انعكاس التغير الاجتماعي على الأسرة الريفية في الأبعاد التالية:

1 - كان الفرد الريفي أو البدوي تابعاً لنظام المسئولية القبلية الجماعية، ولم يكن له استقلال خاص، أما الآن في ضوء التغير الاجتماعي الذي شمل كل المجتمع فقد أصبح مستقلاً ومسئولاً مسئولية فردية عما يفعله، كما أنه أصبح تابعاً، ولكن تبعيته ليست للقبيلة أو العائلة فحسب، بل ولمجتمع القرية أو المدينة أو الدولة بأسرها.

2 - تميزت الأسرة الريفية والبدوية بتعدد الزوجات وكثرة الأبناء، أما الآن فهناك ميل إلى العزوف عن ذلك بفعل التغير الاجتماعي الذي جاء بمفاهيم جديدة حول الأسرة، وتخطيطها. كما أن انتقال الأسرة الريفية إلى حياة المدن أو التأثر بها أسهم في التخلي عن كثير من العادات والتقاليد الريفية المتعلقة بالأسرة، مثل عيش الأسرة أو العائلة الممتدة في مسكن واحد، والسلطة المطلقة للرجل في أسرته[8].

وفي الواقع أن التغير الاجتماعي قد أثر على كل النظام الأسري في الريف الليبي والحضري على السواء، فهو من السعة والشمول بحيث لا يمكن حصره بسهولة ويسر، فهو قد أثر على الأسرة كمؤسسة اجتماعية بكاملها، وقد اخترنا أن نناقش أبرز هذه الآثار الاجتماعية في حياة الأسرة الليبية الريفية، وهي:

1- حجم الأسرة:

تظهر البيانات والملاحظات المتوافرة أن التغير الاجتماعي قد جعل الأسرة الريفية خاصة القريبة من المدن الكبرى تنمو وتميل نحو النمط النووي الصغير والذي يقتصر على جيل الآباء والأبناء بدلاً من النمط العائلي الكبير والممتد، والذي يحوي أكثر من جيلين يعيشون حياة مشتركة. ولقد ارتبط هذا التغير بعدة عوامل

منها تغير النمط الإنتاجي، وأسلوب حياة الأسرة الريفية، ومنها كذلك الهجرة الداخلية إلى المدن، ومنها محاكاة النمط الحضري للأسرة، ولقد أخذ الشباب في الريف ينطلقون ويطمعون في أن يكون شكل الأسرة الذي يتوقعونه مطابقاً لنمط الأسرة الحضرية بشكل أو بآخر. وعلى كل حال فهذه المطامح لا يمكن أن تتحقق إلا حين يترك هؤلاء الشباب حياة الأسرة الريفية ويغادرون الريف ولو ظل الفتى أو الفتاه في القرية أو البادية، فمعنى ذلك عدم تحقق تلك الطموحات بصورة كاملة، كما أن هناك الكثير من الشباب الريفي يرغبون في ترك العمل الزراعي والحصول على مهنة أخرى في المدن، وهذا سيؤدي إلى تغيرات كبيرة في حجم الأسرة وطريقة اختيار الزوجة وأسلوب السكن.

2- تماسك الأسرة:

أن الأسرة الريفية الحديثه في ليبيا أخذت شكلاً يتسم بالافتقار إلى كثير من الانسجام كنتيجة لوجود نزعتين متناقضتين تحدث الواحدة منها بمصاحبة الأخرى، وهي الازدياد الملحوظ والمسيطر في تطلعات الأفراد إلى الأخذ الكامل بنمط الحياة الحضرية هذا من جهة، ومن جهة أخرى الاستمرار في أنماط الحياة التي تفرضها الحياة الريفية والعمل الزراعي من جهة ثانية، وفضلاً عن ذلك فإن نمو المجتمع الصناعي بطبيعته الاجتماعية يعمل بدوره على تعميق ذلك الخلاف الاجتماعي، وذلك في ضوء الافتراض القائل بأن تكيف الأسرة الريفية وتوافقها مع حياة المجتمع الصناعي سوف ينمو من خلال الأشكال الصناعية التي بدأت تميز أنماط الإنتاج ومنها العمل الزراعي نفسه.

3- العلاقات الأسرية:

على الرغم من التغيرات التي تعرضت لها الأسرة الريفية ومن ثم إنعكاس تلك التغيرات على أنماط العلاقات الأسرية والقرابية والإجتماعية التقليدية والتي كانت تستند إلى القيم والأعراف القبلية (علاقات الوجه للوجه القائمة على نظم القرابة والمصاهرة والجيرة... وغيرها)، إلا أن ثمة تغيرات قد أصابت تلك الأنماط التقليدية من العلاقات بفعل التغيرات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية التي تعرضت لها المجتمعات الريفية بصورة عامة والأسرة بصورة خاصة، حيث أصبحت العلاقات تقوم على المصالح الإقتصادية... وغيرها من المحددات الأخرى.

وعلى ذلك فإن هذا التماسك بدأ يهتز، فقد ظهرت روابط وعلاقات ريفية لا تقوم على أية قرابة جغرافية أو عائلية، وإنما تقوم على مصالح اقتصادية واهتمامات اجتماعية قد تكون من خارج حياة القرية نفسها. كما أن الريفي بحكم اتساع دائرة اتصالاته في المجتمع أصبح حراً في اختيار علاقاته وأصدقائه على أسس ليست بالضرورة من داخل القرية، فقد يتزوج الريفي من قرية أو مدينة أخرى نظراً لأنه

تعرف على زوجته هذه في العمل أو أنها صديقة لأخته التي تدرس معها، وهكذا.

4- السلطة الاجتماعية في الأسرة:

لقد طرأت تغيرات أساسية على نمط العلاقات في داخل الأسرة الريفية الليبية، فالأسرة الأبوية الصارمة آخذة في التغير إلى نمط أقل صرامة. ولقد بدأت الفردية تميز اتجاهات الأعضاء في الأسرة الليبية عموماً، وأصبح الأبناء وخاصة الذكور منهم يعبرون عن رغبتهم دائماً في المشاركة في اتخاذ القرارات التي تتصل بحياة الأسرة، أو على الأقل ضمان تحقيق رغباتهم بما يتفق والقيم الخاصة بهم. كما أصبح الأبناء المتزوجون يتخذون بأنفسهم الكثير من القرارات التي تتصل بحياتهم الخاصة، وكذلك التي تتصل بالأسرة والعمل الزراعي.

ومن هنا نخلص إلى أن التغير في بنية الأسرة صاحبه تغير في نمط السلطة داخل الأسرة موزعة بين الآباء وأكبر الأبناء والأم الكبرى، فقد ضعفت تلك السلطة (سلطة التوجيه والتنشئة الاجتماعية) وأصبحت الأسرة في الغالب ذات سلطة أبوية ضعيفه مهزوزة مقارنة بما كانت عليه سلطة الأب في الأسرة الليبية التقليدية في الريف والبادية.

5- الوظائف التربوية للأسرة:

لقد أدى التغير الاجتماعي في المجتمع الريفي إلى تحولات أساسية في الوظائف التربوية والثقافية للأسرة، وعمق من هذه التحولات كما قلنا سابقاً الإعلام وخاصة الإذاعتين المرئية والمسموعة ووسائل المواصلات الحديثه وخاصة السيارة والهاتف. ونتيجة لذلك تكون الآن اهتمام كبير بتعليم الأبناء في المدارس والجامعات والمعاهد، ويقول أحد الباحثين الليبين في هذا الصدد:

(وحيث أن أغلب البدو إن لم يكونوا كلهم قد عرفوا قيمة التعليم بدليل أنهم جميعاً يرسلون أبنائهم للمدارس إلا فيما ندر، بل أن هناك من ينقل أبناءه وبناته بالسيارة مسافة كبيرة كل يوم من أجل تمكينهم من تحصيل المعرفة العلمية بأسلوبها الحديث وقد تأتي ذلك بفضل وجود السيارة وهذا يدل على أن المدرسة بدأت تشارك مشاركة فعالة في الوقت الحاضر في التنشئة الاجتماعية لأطفال البدو والريف لصالح الأمة بعد أن كانت التنشئة الاجتماعية تقوم بها لصالح القبيلة في أغلب الأحيان) [9] .

إضافة إلى ما سبق فإن هؤلاء الأبناء الذين يتلقون تعليمهم بالمدارس قد يتخففون من أعباء العمل الزراعي، وإن كانوا يقومون ببعض الأعمال الخفيفة والتي تختلف عما كان يؤديه الأبناء في الماضي. وكان من نتيجة تعلم جيل من الريفيين وأبناء البادية، أن أصبح تفكير هؤلاء واسعاً وشاملاً يتعدى القرية أو القبيلة وما يحيط بها، بل أن تفكيرهم بدأ يتجه إلى الوطن والعالم.

وعلى العموم فإن التنمية والتحديث في الريف الليبي عملت على تربية وتكوين شخصية مميزة يسميها أحد علماء الإجتماع دانيال ليرنر (بالشخصية الانتقالية). ومما يميز هذه الشخصية عن الأنواع الأخرى من الشخصيات العصرية هو كون الفرد الانتقالي شبه أمي من سكان الريف، وأحياناً يسكن مدينة كبيرة أو مدينة صغيرة، ولكنه يتسم ببعض صفات الفرد العصري وخصوصاً صفة الحساسية الاجتماعية. فالإنسان الانتقالي بخلاف الإنسان التقليدي شخص يرغب في تغيير نمط حياته، فهو لا يحبذ التغير الاجتماعي فقط، بل يرغب المشاركة فيه، والحصول على فوائده، وإذا قارنا الشخصية العصرية بمفهومها المعروف في المجتمعات المتقدمة والشخصية الانتقالية كما تبلورت في الريف الليبي فنجد هناك فرقاً كبيراً بينهما، فالإنسان الليبي وخاصة في الريف لا يزال متمسكاً بالحياة التقليدية المتوازنة، ومتطلعاً في نفس الوقت إلى الحياة العصرية. فهو يشاهد الإذاعة المرئية، ويقرأ الصحف، ويتنقل في رحلات إلى العالم الخارجي، ويزاول مهناً خارج القطاع الزراعي، وهناك من الريفيين من يقيم بالريف ولكنه يزاول شخصياً أو بالواسطة أعمالاً في المدينة ويمتلك عدة مشروعات تجارية فيها [10].

6- الإنتاج وعمل الأسرة:

كانت ولا تزال الأسرة الليبية إلى حد كبير وحدة إنتاجية وتربوية تشبع حاجاتها وتسهم في الإنتاج الاجتماعي، حيث كانت تنتج غذائها وتسهم في إعادة الإنتاج البسيط، وتوظف مدخراتها في أنماط الإنتاج العائلي، وتسهم بوضوح في تنشئة الأطفال تنشئة مهنية. إلا أن هاتين الوظيفتين بدأتا تختفيان نتيجة التغيرات الأساسية في نمط الإنتاج من نمط زراعي تقليدي إلى نمط زراعي حديث يعتمد على الميكنة الزراعية والصناعات الزراعية، ويعتمد أولاً وأخيراً على السوق، وسادت قيم الربح والقيم المادية فظهرت الجدوى المالية لكل عمل زراعي تقوم به الأسرة الريفية أو البدوية.

وعلى سبيل المثال إذا تأخر وصول الأسمدة إلى المزارع، فإن محصوله سيتأثر كثيراً، مما يؤثر على دخله السنوي، وهذا في حد ذاته قد يؤثر على مستوى معيشته. وهكذا تقارن هذه الصورة بالماضي حيث كان المزارع يخزن غذاءه من أرضه، ولباسه من حيواناته للعام كله، فلا يشعر بالحاجة إلى العالم الخارجي أي بمعنى (الاكتفاء الذاتي أو الاقتصاد المعيشي).

إن تغير نمط الإنتاج في الريف الليبي قد أدى إلى مزيد من التغيرات الاجتماعية في الحياة الاقتصادية للريف الليبي لعل من أهمها ازدياد التمايز الاقتصادي بين الأفراد وذلك بازدياد الهجرة والتنقل بين الريف والمدينة، وتطور المهن الحديثة والتعليم العصري. ومع هذا كله فإن بعض المظاهر الاجتماعية بقيت تقليدية كما كانت عليه في الماضي، فالطبقات الاجتماعية بمعناه الغربي لا وجود لها في الريف الليبي، ولازالت عوامل الضبط الاجتماعي تعتمد على مبدأ المساواة وعلى العوامل

المتوارثة التقليدية، كما أن التمايز الاقتصادي كان يقتصر في السابق على النواحي التي تخص الزراعة والممتلكات الأرضية، فالتقسيم الأساسي كان بين أرباب الأرض وبين المستأجرين الزراعيين، وقد أخذ قسم كبير من الأفراد في الفترة الأخيرة يعتمدون على الأعمال والوظائف المختلفة (كمصدر للعيش). ومن نتائج ذلك أن أصبح التمايز الاقتصادي يدور حول الفرد أو العائلة الزوجية وليس حول العائلة الممتدة أو الأخوية كما كان في الماضي.

ومع هذا فإن الأفراد لا زالوا في الريف والمدينة يتخالطون مع غيرهم (كما يظهر من تبادل الزيارات والاشتراك في الحفلات والأكل من مائدة واحدة، على أساس القرابة والصداقة وليس على أساس المركز الاقتصادي والاجتماعي. كما أن الفروق الرمزية الظاهرية (في اللباس والمأكل وطريقة شغل أوقات الفراغ) لازالت بسيطة، ولا تتم حسب الانتماءات الطبقية والاجتماعية، وإنما غالباً تتم بحسب التقارب الشخصي، والصداقة، والهوايات، فكثيراً ما تجد الأغنياء والفقراء منهمكون في علاقات اجتماعية متينة يأكلون من صحن واحد ويشربون الشاي على الطريقة الليبية، ويلعبون الورق، دون أي اعتبار لوضعهم الاقتصادي، ولعل ذلك سمة تميز جميع أبناء المجتمع الليبي مهما كانت وظائفهم وثرواتهم، هذه السمة هي التواضع والبساطة والشعور بالأخوة نحو الجميع.

خاتمـــة

جاء هذا البحث لدراسة الأسرة الريفية كنظام اجتماعي ريفي تتجسد فيه معظم الخصائص والصفات المذكورة أعلاه. ولكن هذه الأسرة الريفية مثلها مثل كل شيء في ليبيا تتعرض للتغير والتحول والتطور سواء بفضل التنمية الريفية، أو بفضل التنمية الاجتماعية والاقتصادية الشاملة التي حولت القرية الليبية من عزلتها ودمجتها في إطار المجتمع الوطني العام. فالأسرة الليبية بدأت نتيجة لذلك تتخذ خصائص مختلفة إلى حد كبير عن تلك الخصائص التقليدية المعروفة عنها، فالأسرة الريفية بدأت تميل إلى الحجم الصغير بدلاً من الحجم الكبير إذ بدأ ينمو نمط أسري ريفي يمثل جيلاً واحداً فقط هو الزوج والزوجة والأبناء غير المتزوجين، وبدأت الأسرة الريفية الليبية تعكس كثيراً من مظاهر الفردية بين أعضائها، فهي لم تعد تلك الأسرة التي يشرف عليها ويوجهها أكبر أعضائها الأب أو الجد أو الأخ الأكبر، وهذه الفردية تنعكس في العلاقات الاجتماعية في الأسرة فكل عضو في الأسرة رأيه إلى حد ما رأيه الخاص واهتماماته الفردية ودخله الخاص وهذه الوضعية قد تتعارض في بعض الأحيان مع بقية أفراد أسرته الكبيرة.

والسلطة الاجتماعية في الأسرة تحولت بدرجة كبيرة عن شكلها التقليدي

المعروف في الريف الليبي، وأخذت شكلاً يشبه إلى حد كبير السلطة الاجتماعية في الأسرة الحضرية، بمعنى أن كبار السن لم يعد لهم وحدهم حق اتخاذ القرارات النهائية في شؤون الأسرة بل يتخذ أفراد الأسرة في الغالب قراراتهم الخاصة بهم بأنفسهم، كما أن تنشئة وتربية الأطفال وصغار السن انتقلت من أيدي كبار السن من الرجال والأمهات والجدات والخالات والعمات وذوي الخبرة في الأسرة إلى المدارس والجامعات والمعاهد التعليمية، وترتب على ذلك توسع أفاق الإنسان الريفي وازدياد طموحاته ورغباته ومهاراته مما قد يؤدي به إلى الهجرة إلى المدينة وترك حياة الريف والبادية. وأخيراً لم تعد الأسرة الريفية كما كانت وحدة إنتاجية تكتفي ذاتياً، بل أصبح عملها وإنتاجها مرهوناً بالسوق، وأصبحت تعتمد في كل شؤون حياتها تقريباً على ما يقدمه السوق من معدات وأدوات للإنتاج، وبضائع وخدمات للاستهلاك اليومي.

قائمة المراجع والهوامش

(1) علي الحوات، علم الاجتماع الريفي، مالطا ، ألجا، 1996، ص 209.

(2) محمد المرزوقي، مع البدو في حلهم وترحالهم، تونس، الدار العربية للكتاب، 1984، ص (70).

(3) محجوب عطية الفايدي، علم الاجتماع والمجتمع الريفي، جامعة عمر المختار، ليبيا، 1992، ص 203.

(4) المرجع نفسه، ص 199-200.

(5) فوزي رضوان العربي، دراسات في المجتمع العربي، عمان، منشورات اتحاد الجامعات العربية، 1985م ص (147).

(6) تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، طرابلس ، الدار العربية للنشر والكتاب، 1988، ص (54).

(7 المرجع السابق، ص (59).

(8) حسن عبد الحميد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في الطب والأمراض دراسة في علم

الاجتماع الطبي، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1989م، ص (212-213).

(9) لوجلي صالح الزوي، التنشئة الاجتماعية عند البدو وأثرها في تكوين الإنسان البدوي ، دراسة قدمت إلى مؤتمر الأسرة الثالث ، طبرق ، ليبيا، 20-23 يوليو، 1987، ص (14).

(10) مصطفى عمر التير وآخرون، أنماط التكيف الاجتماعي في القرى الزراعية الجديدة، بيروت: معهد الإنماء العربي، 1981م، ص (26).